

الفارس المملوكى

تألف الجيش المملوكى بمصر من أربع فئات وهى : فئة المماليك السلطانية وهم طوائف كثيرة تضم ممالك السلاطين السابقين ، أى القرانصة (١) ، ومماليك السلاطين الذين فى دست الحكم وهم المشتريات . ويعرفون فى المراجع باسم المشتريات أو الحلبان أو الأجلاب (٢) ، ومماليك الأمراء الذين ينتقلون إلى الخدمة السلطانية بسبب وفاة أو عزل أو مصادرة تلحق بسادتهم : ويطلق على هذه الطائفة الأميرية اسم السيفية (٣) .

والفئة الثانية هى ممالك الأمراء وأرباب الدولة والوظائف : ويعرفون باسم أجناد الأمراء ، والفئة الثالثة هم أجناد الحلقة الذين يجيئون من عناصر مختلفة من أصناف المماليك الذين تقدمت الإشارة إليهم فضلا عن بعض المتعممين (٤) . أما الفئة الرابعة فهى فى الواقع داخلة فى نطاق فئة الحلقة ، ولكنها ظلت مستقلة لاقتصارها على أبناء السلاطين الأمراء والمماليك ، ونشأ هؤلاء الأبناء وتربوا فى دار الإسلام وحمل معظمهم أسماء عربية . بل التحق بهذه الفئة الضيقة عدد كبير من الفقهاء ، ويعتبر أولا الناس أرقى أفراد فئة الحلقة (٥) .

(١) انظر Ayalon, David : Studies on the Structure of the Mamluk Army p. 217 (Reprint from the BSOAS 1954 XVI).

(٢) الظاهرى : زبدة الفكرة ص ١١٦ .

(٣) العرينى : نظام الفروسية زمن سلاطين المماليك (غير مطبوع) ص ٢١ .

Ayalon : op. cit. XVI, I pp. 220-222.

(٤) الظاهرى : زبدة كشف المماليك ص ١١٦ .

ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة ج ٦ ص ٣٨٦ - ٣٨٧ .

القلتمشندى : صبح الأعشى ج ٤ ص ١٦ . Ayalon : op cit. II p. 449 .

(٥) Ayalon : Op. Cit. II p. 4501451

ابن تغرى بردى : المنهل الصافى ج ٢ ص ١٣٥ .

النجوم الزاهرة ج ٥ ص ١٥٣ ، ١٥٩ ، ١٦٠ .

منتخبات حوادث الدهور ١٧٤ - ١٧٥ .

ابن إياس : بدائع الزهور ج ٢ ص ٩٣ ، ١٠١ ، ١٠٢ ، ١٠٣ ، ١٣٧ .

وجاءت عناصر الجيش المملوكى من أجناس مختلفة ، وأولها جنس الترك ، وهو اسم جنس للماليك الذين جاءوا من بلاد قبيجاق حيث جرى امتزاج التتار والمغول بالترك في هذه البلاد (١) . ونشطت حركة جلب الرقيق من العناصر التى خضعت للتتار على يد تجار أجانب ، وأقبل أبناء الملوك من الأيوبيين على اقتناء أعداد كبيرة من ذلك الرقيق لإنشاء الجيوش الكافية لحروبهم الداخلية ، فأكثر الصالح أيوب من شراء المالك بعد أن تبين له فساد الخوارزمية وعدم الاعتماد عليهم (٢) . ولذا جاء معظم السلاطين في العصر المملوكى الأول من بلاد القبيجاق * ومن الطبيعى أن يعتمد كل منهم على مثل ما نشأوا فيه من جيوش مملوكية معظمها من جنسهم . وكان لاستمرار الحرب بين ملوك التتار في الشرق أثر كبير في كثرة السبي من النساء والصبيان الذين جيء بهم إلى مختلف الأسواق في مصر والشام وآسيا زمن السلطان الناصر محمد بن قلاوون (٣) . ووجد الخنوية وغيرهم من التجار في السلطان مغنا ، فأمعنوا في الاستيلاء على : أولاً التتار وجلبهم إلى ثغر كفا بالقدم ، وضاق طقطاخان ملك القبيجاق بهذه التجارة فأرسل جيشاً إلى كفا وضرب أوكار تجار الرقيق بها ، غير أن ذلك لم يمنع تجارة الرقيق أو يقلل من نشاطها (٤) . أما الجراكسة وهم الذين يلون الترك في الأهمية في تكوين الجيش المملوكى فكانت منازلهم ببلاد قبيجاق الخنوية بين بحر قزوين والبحر الأسود ، وتعرضت مواطنهم لإغارات الدولة الخوارزمية ، فأخذت كثيراً من رجالهم أسرى وسبت نساءهم وأولادهم ، وجلبتهم التجارة الخوارزمية رقيقاً إلى الأقطار الإسلامية : واشترى المنصور قلاوون عدداً كبيراً منهم وأنزلهم في القلعة ، إمعاناً في إبعاد العناصر الشمالية من القبيجاق التتاريين الذين تألفت منهم الظاهرية ممالك بيبرس وأولاده من الجيش المملوكى (٥) . وازداد شأن الجراكسة فيما جرى

(١) القلقشندي : صبح الأعشى ج ٤ ص ٤٧٤ ج ٦ : ٤٥٨ .

المقريزي : الخطط ج ١ ص ٩٥ .

العيني : عقد الجمان ج ٥٢ ص ٤٢٢ .

(٢) ابن تفرى بردى : النجوم الزاهرة ج ٦ ص ٣٢٠ ، ٣٣٠ ، ٣٣١ .

(٣) بيبرس الداوادر : زبدة الفكرة ص ٣٨٤ .

(٤) بيبرس الداوادر : زبدة الفكرة ص ٤٦٠ .

(٥) المقريزي : الخطط ج ٣ ص ٣٩١ .

من الحوادث والفتن التي وقعت أواخر عصر بيت قلاون ، وما زالوا حتى أعادوا برقوقاً إلى السلطنة فأحسوا بقوتهم ؛ وحاول برقوق كبح جماحهم غير أنه لم يستطع إلى ذلك سيلاً ، فتكونت بذلك دولة الجراكسة ، وأقبل كثير منهم على الهجرة إلى مصر ، واستغلوا رابطة الجنس في سبيل الحصول على امتيازات كثيرة . ودخل الجيش كذلك عناصر أخرى من الخوارزمية والأكراد والعرب والتركان والمصريين .

على أن المقصود بهذا البحث هو دراسة ما وضعه سلاطين المماليك من نظم وقواعد لتنشئة الفارس المملوكي من فئة المشتريات من المماليك السلطانية الذين يعتبرون أعظم الأجناد شأنًا وأرفعهم قدرًا وأشدّهم إلى السلطان قرباً وأوفرهم إقطاعاً ومنهم توفر الإمرة رتبة بعد رتبة (١) .

ويعتبر التاجر الذي جلب المملوك إلى مصر أول حائز له وأول أستاذ له . واشتهر بعض التجار أحياناً باسم تاجر الخاص ، وأصبح الواحد منهم مكلفاً بجلب المماليك للسلطان ، ولذا عهد بهذه الوظيفة أحياناً إلى أمير من أمراء المماليك (٢) . وإذا وصل تاجر المماليك إلى القاهرة لتي أنواع الحفاوة من السلطان (ولا سيما أيام السلطان الناصر محمد بن قلاون) ، فضلاً عن مساحته من المكوس والمقررات السلطانية (٣) . ويشير المقریزی إلى أن السلطان الناصر محمد بن قلاون كان أكثر السلاطين سخاءً في شراء المماليك ، وبلغ ما دفعه ثمناً للملوك واحد مائة ألف درهم أحياناً مما جعل الأب يجد سعادته في بيع ابنه إلى تاجر يجلبه إلى مصر ، واقتدى الأمراء بالسلطان في ذلك (٤) . وأدى ذلك إلى زيادة أثمان المماليك عند شراء التجار لهم حتى بلغ ثمن الواحد منهم عشرين ألف وثلثين ألفاً وأربعين ألف درهم (٥) ، غير أنه يبدو أن الناصر لم يدفع أثماناً بهذه الضخامة إلا

(١) القلقشندی : صبح الأعشى ج ٤ ص ١٥ .

(٢) السخاوی : الضوء اللامع ج ١٠ ص ٢٨٧ .

ابن تغری بردی : المنهل الصافي ج ١ ص ٢٩٦ ، ب .

(٣) القلقشندی : صبح الأعشى ج ٣ ص ٣٨ - ٤٠ ، ج ٤ ص ١٣٨ - ١٣٩ .

(٤) المقریزی : السلوك لمعرفة دول الملوك ج ٢ ص ٥٢٥ .

الخطط ج ٣ ص ٣٤٨ .

(٥) المقریزی : السلوك لمعرفة دول الملوك ج ٢ ، ص ٥٢٥ .

مرتين وذلك حين اشترى صرغتمش بخمسة وثلاثين ألف درهم فضلا عن تشریف أستاذه ومسامحته في عدة مقررات (١) ، وحين دفع مائة ألف درهم في شراء ملكتمر الحجازي (٢) لما اشتهر به من جمال الحلقة وطول القامة وحادثة السن (٣) .

وجرى العرف أن يشتري السلطان المالك الجدد من أموال الدولة (بيت المال) ، وهو الذي يتولى عتقهم ، فإذا حدث أن توفي سلطان من السلاطين ولديه من المالك من لم يعتق ، اشتراهم السلطان الجديد مرة أخرى ، على أن يذهب جزء من ثمن الشراء لأسرة السلطان المتوفى (٤) . ويتعلق بهذا الموضوع ما ورد من نصوص عما جرى حين عزل السلطان الناصر محمد بن قلاوون نفسه عن السلطنة سنة ٧٠٩ . إذ بعث السلطان المظفر بيبرس إلى الناصر بالكرك يطلب إليه إرسال المالك الذين عنده لأنه اشتراهم من بيت المال (٥) ، فأثار بيبرس بذلك مسألة فقهية وهي أن الناصر اشترى جميع ممالكه من بيت المال ، وليس له الحق من الناحية القانونية في الاحتفاظ بهم بسبب عزله عن السلطنة . ولما عاد الناصر إلى السلطنة سنة ٧٠٩ استدعى الفقهاء وأقام عندهم البيعة بأن جميع ممالك السلطان المظفر بيبرس وجميع ما وقفه من الضياع والأموال اشتراه من بيت المال ، فوافق القضاة على ذلك ، وتقرر تصفية تركة المظفر بيبرس ، واستوفى بيت المال ماله من حقوق عنده (٦) .

ويرسل السلطان مشروعاته من المالك إلى الطباق حيث ينزل كل منهم في

-
- (١) المقریزی : السلوك لمعرفة دول الملوك ج ٢ ص ٥٣٦ .
 - (٢) العسقلانی : الدرر الكامنة ج ٤ ص ٣٥٨ .
 - ابن تغری بردی : النجوم الزاهرة ج ٥ ص ٥٢ .
 - المقریزی : الحطط (بولاق) ج ٢ ص ٤٠٤ .
 - (٣) العسقلانی : الدرر الكامنة ج ٢ ص ٢٠٦ .
 - (٤) ابن تغری بردی : منتخبات من حوادث الدهور ص ٦٧٢ .
 - المهمل الصافي ج ١ ص ٢٧٧ ، ٤٠٤ ب .
 - المقریزی : السلوك لمعرفة دول الملوك ج ١ ص ٣٥٣ ، ٥٠٨ ، ٥٠٩ .
 - (٥) ابن تغری بردی : النجوم الزاهرة (ق) ج ٨ ، ص ٢٥٤ .
 - (٦) ابن تغری بردی : النجوم الزاهرة (ق) ج ٨ ، ص ٢٥٧ .

طبقة جنسه ليتلقى التعليم الديني والحربي . وقامت الطباق بساحة الإيوان بالقلعة لسكنى المشتروات من الممالك وتعليمهم ، وربما ظل المملوك مقيماً بها بعد عتقه ، واشتملت كل طبقة على عدة مساكن تتسع لألف مملوك (١) . ومن المعروف أن الظاهر بيبرس بنى بالقلعة طبقتين مطلتين على رحبة الجامع ، وأنشأ برج الزاوية المجاور لباب القلعة ، وشيد جواره طبقة للممالك (٢) ، وسار على سنته في إنشاء الطباق من جاء بعده من السلاطين ، غير أنه يبدو أن الناصر محمد بن قلاوون حرص على أن تكون الطباق في مكان واحد ، فأمر بهدم ما يقع بينها من المباني والقصور ثم جمع فيها فئات الممالك السلطانية جميعاً ، وجعلها الظاهري اثنتي عشرة طبقة (٣) على الرغم من أن المصادر المملوكية المعاصرة ذكرت من أسماء الأطباق ما يزيد كثيراً عن هذا العدد ، مما يرجح أنها لم توجد كلها في وقت واحد . بل طرأ عليها كثير من التغيير والتعديل ، وربما تغير بعضها إلى اسم آخر . وهذه الأطباق التي تردد ذكرها في المصادر المملوكية هي : الرفرف ، والطازية والزممام ، والأشرفية ، والحوش ، والغور والمقدم ، والصندلية ، والحازندار ، والميدان ، والمستجدة ، والقاعة ، وقراجا ، والأربعين ، ومرجان الحازندار ، والحروب ، والطبقة البرانية . ويتبين من ذلك أن عدداً كبيراً من الأطباق حمل أسماء طواشية أو أسماء وظائف تولاها أشخاص معينون على شئون هذه الأطباق (٤) .

ويكاد المقریزی ينفرد عن سائر المؤرخين بشرح تربية الممالك في الطباق بالقلعة ، وخلاصته أن الرسم كان في أول عهد السلاطين الممالك ألا تجلب التجار سوى الممالك الصغار . فأول ما يبدأ به فيما اصطلح العرف على تسميته

(١) المقریزی : الخطط ج ٣ ، ص ٣٤٦ ، ٣٤٧ .

القلقشندي : صبح الأعشى ج ٣ ، ص ٣٧٥ ، ٣٧٦ .

ابن الفرات : تاريخ الدول والملوك ج ٩ ص ٨٨ .

الظاهري : زبدة كشف المالك ص ٢٧٧ .

(٢) ابن تغري بردي : النجوم الزاهرة (ق) ج ٧ ، ص ١٩٠ ، ١٩١ .

(٣) الظاهري : زبدة كشف المالك ص ٢٧ .

(٤) العريني : نظام الفروسية ص ٥٥ - ٥٧ .

يرسم الكتابة (١) : هو أن يحفظ المملوك أجزاء من القرآن الكريم ، ولسكل طائفة من المماليك فقيه يحضر إليها كل يوم ، ويأخذ في تعليمها القرآن والخط وآداب الشريعة والصلوات والأذكار . فاذا شب الواحد من المماليك ، علمه الفقيه شيئاً من الفقه وأقرأه فيه مقدمة . فاذا صار إلى سن البلوغ ، قام معلم بتعليمه أنواع الحرب : من رمي السهام ولعب الرمح والضرب بالسيف ونحو ذلك . وإذا ركب الممالك إلى لعب الرمح لا يجسر جندي ولا أمير أن يدنو منهم .

وينتقل المملوك بعد تمرينه وعتقه إلى الخدمة ، فيتدرج في أطوارها رتبة بعد رتبة حتى يصبح من الأمراء ، فيبلغ ذلك بعد أن تهذبت أخلاقه وكثرت آدابه ، وامتزج تعظيم الإسلام وأهله بقلبه ، واشتد ساعده في رماية النشاب . وجنح بعض المماليك إلى الدراسة الفقهية أو غيرها من الدراسات المدنية فصار منهم الفقيه والأديب والشاعر والحاسب .

وكيفما كان الأمر اعتنى السلاطين بتربية المماليك في هذه الأدوار الأولى من حياتهم ، فجعلوا عليهم أزيمة من الخدم وأكابر من رؤساء النوب ، يفتحصون عن حال الواحد منهم ، ويؤاخذونه أشد المؤاخذة ويناقشونه على حركاته وسكناته . فاذا علم أحد منهم أن مملوكاً من المماليك اقترف ذنباً أو أخل يرسم أو ترك أدباً من آداب الدين والدنيا ، قاباه على ذلك بعقوبة على قدر جرمه .

وأجرى السلاطين لطباق المماليك الرواتب الكثيرة من اللحوم والأطعمة والحلوى والفواكه والكساوى ؛ وتكون كسوة المملوك عند نزوله بالطباق من الثياب القطنى البعلبكي ، ومن الثياب الكتان الخام المتوسط ، فضلاً عن المعاليم من النقود . ثم رخص السلطان برقوق للمماليك في سكنى القاهرة وفي الزواج ، فنزلوا من الطباق إلى المدينة وتزوجوا من نساءها ، غير أنهم لم يلبثوا أن أخذوا إلى البطالة والعافية ونسوا حياة الطباق وصرامتها ، ثم تلاشت الأحوال وانقطعت الرواتب من اللحوم وغيرها ، لتفضيل الممالك للراتب النقدي أيام السلطان فرج

(١) المقصود برسم الكتابة تعليم المملوك ، والسرف في ذلك أن أكثر المشتريات في هذا العصر للأول من الممالك الصغار ، ولذلك سمو الممالك الكتابية (انظر المقرئى : الخطط - بولاق ج ٢ ص ٣١٣ ، ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة ج ٧ ص ٢٥٣) .

ابن برقوق فصار غذاؤهم في الغالب الفول المصلوق عجزاً عن شراء اللحم (١) .

ثم تطور الحلب من الممالك فأصبح من الرجال من أرباب الحرف ومن ضاق به العيش في بلاده ، وهبط مستوى تعليم الممالك سواء في الدين أو الفنون الحربية ، ورأى السلطان فرج أن يترك الممالك الكبار وشأنهم ، فتغيرت الأحوال ، وصار الممالك السلطانية أرذل الناس وأدناهم ، فكان ذلك من عوامل خراب مصر والشام (٢) .

وقام على تعليم الفروسية للممالك معلمون اشتهروا بإجادة فنونها المختلفة من الطعن بالرمح والضرب بالسيف والرمي عن القوس ، وألف بعض هؤلاء المعلمين والأساتذة كتباً تناولت أصول الفروسية وآدابها ومراحل التعليم الحربي ، والطرق المختلفة لتلقي المتعلم أساليب الفروسية ، وممارسة الألعاب التي تساعد على الاتقان والإجادة مثل الرمي في القبق والقيغج ولعب البرجاس والصوألحة وسوق المحمل ، فضلاً عن تعرف الأدوات الحربية .

ففي الرماية مثلاً يبدأ الأستاذ في تعليم الرمي لتلاميذه من الممالك باتخاذ قوسين لينتين ، يطرح إحدهما بين يدي المتعلم والأخرى بين يديه ، فيبدأ أولاً بتعليمه كيف يقبض ، وكيف يمد بالأصابع الثلاثة حتى يصح قبضه ، ويتطلب ذلك وحده أياماً ومراتاً . ثم يعقد الأستاذ على الوتر من غير سهم ويشد أصابعه عليه حتى يستقيم عقده ، ويتبعه المتعلم في ذلك من غير رمي ، فيطلق الوتر فارغاً أياماً حتى يصح إطلاقه . ثم يأخذ الأستاذ في تعليم المملوك إطلاق السهم من القوس بغير ريش ، فلا يزال به حتى يعلمه التفويق والاحكام في الرمي وذلك بالتدرج رويداً رويداً من قوس التعليم اللينة إلى قوس أقل ليونة حتى يبلغ خمس أقواس متفاوتة في القوة ، وتكون الخامسة هي الصالحة للعمل في الميدان . فاذا تمكن المتعلم من الرمي عليها ، أخذ في شد القسي الشديدة ونزعها جهد طاقته ، وتمرس في استخدامها ليلاً ونهاراً . وعلى المتعلم أن يسمى عند الابتداء ويكبر عند الإطلاق ويصلي على رسول الله بعد ذلك ، وعلى الأستاذ

(١) المقرئزى : الخطط ج ٣ ص ٣٤٧ - ٣٤٨ .

السلوك لمعرفة دول الملوك ج ٢ ص ٥٢٤ - ٥٢٥ .

(٢) المقرئزى : الخطط ج ٣ ص ٣٤٨ .

أن يشكر تلاميذه ويشجعهم ليزدادوا رغبة في التحصيل والتعليم ، فيروض تلاميذته ويؤلف بينهم ويحرضهم على العمل ، ولا يوبخهم إلا خلوة ليجتهدوا في الطلب ويكثروا في احترام الموضع الذي خص بالرمى ، ولا يرضى لأحد أن يتكلم فيه بفاحشة لأنه مسجد (١) .

فإذا صح رمى المتعلم ورمى الإماج أياً ما على غير علامة أو هدف ، — والاماج هو رمية السهم قاب قوس واحد (٢) — خرج إلى الصحراء ورمى في الفضاء على غير علامة كذلك . فاذا رأى سهامه في الهزاء صحيحة مستوية غير مضطربة رجع إلى الأستاذ ليعلمه الرمي إلى العلامة ، وذلك بأن يمرنه على الوقوف تجاه العلامة منحرفاً قليلاً ، ويجعل العلامة محاذية لعينه اليسرى ؛ وركبته اليسرى واستواؤها على أصابع رجله قبالة العلامة طولا ، ورجله اليمنى عرضاً ؛ ويجعل بين الرجلين فرجة قدرها ذراع ، فيكون عقب الرجل اليسرى قبالة بياض الرجل اليمنى من داخلها ، ويعتمد على رجله اليمنى وينحرف برجله اليسرى (٣) ويرمي المتعلم أول يوم خمسة أرشاق وأقل من ذلك على قدر قوته وإحكام صنعته ، ثم يعمل على زيادة الرمي حتى يمهر في ذلك وتكثر صوابه (٤) .

وعلى الراى أن يتعرف العيوب والآفات التي تعرض للرماة في نظرهم وبدنهم ، وعليه أن يقف على علل القسى والنشاب ومعرفة إصلاحها ، كما ينبغي أن يكون على علم بتقويم نشابه وقوسه وعقد أوتاره وإصلاح عيوبها ، فضلاً عن معرفة أحكام الرهن والرمى الحلال والسباق والمناضلة ، فاذا عرف ذلك صار رامياً ودخل في جملة الرماة (٥) .

وعلى هذا النحو سار مؤلفو كتب الفروسية في شرح قواعدها وأساليب تعليمها للمتعلمين حتى ينتهوا من دراستهم .

(١) كتاب بنية المرامي ص ٢٨ ب .

(٢) ابن القيم : الفروسية ص ١٠٧ .

La distance à laquelle un arc peut lancer une flèche (Dozy : Supp. Dict. Ar.).

(٣) كتاب بنية المرامي ص ٤ ب .

(٤) علم الفروسية ص ١١١ ب (مخطوطة بدار الكتب رقم ٥ م فنون حريرية) .

(٥) كتاب بنية المرامي ص ٢٧ ب .

وفي أثناء المراحل المختلفة لتعليم المماليك في الطباق أشرف على هذه المراحل كلها جماعة الطواشية ، لأنهم المسئولون عن سلوك المماليك وتربيتهم ومراقبة عدم اختلاط الكبار بالصغار منهم .

وجرت العادة في مراحل التعليم بالطباق أن لا يتناول المملوك الصغير راتباً أو أجراً ، ولا يملك سلاحاً ولا حصاناً ، ولا يحصل على إقطاع ، فإذا تم عتقه يخرج السلطان له خيلاً وقماشاً^(١) وبدا يصبح من المماليك السلطانية ، ويحصل من السلاح خاناه على جميع أنواع الأسلحة من السيوف والقسى والنشاب والرماح والدروع والقرقلات والأطبار وغيرها^(٢) . أما الخيل فتأتي من اصطبل الجوق الذي يختص بخيول الخرج^(٣) . وعند العرض يحصل هذا المملوك على إجازة بانتهاء تعليمه يطلق عليها عتاقة . لأنها تشير إلى عتقه ، وإلى أنه غدا جندياً مدرباً . ويطلق على هذا العرض الذي يعتق فيه المماليك بعد الفراغ من مراحل تعليمهم المختلفة « خرج » أي التخرج . غير أنه لا يوجد بالمراجع المعروفة ما يوضح تماماً مدة مراحل التعليم للمملوك الكتابي ما عدا ما ذكره ابن تغرى بردى في عتق ططر زمن السلطان برقوق بأن « عادة برقوق جرت بأنه لم يخرج للماليكه خيلاً إلا بعد إقامتهم في الأطباق مدة سنتين . وأنه لا يخرج في سنة واحدة خرجين . وإنما يخرج في كل مدة طويلة خرجاً من مماليكه ، ثم يتبعه بعد ذلك بمدة طويلة يخرج آخر ، وهذه كانت عادة ملوك السلف^(٤) » . ومع ذلك لم يخفل سلاطين الدولة المملوكية الثانية بمدة تعليم مماليكهم ، بل اهتموا بتخريجهم أفواجاً بعضها تلو بعض في سرعة غير محمودة ، وكان هذا عاملاً من عوامل الضعف^(٥) .

وجرت العادة بأن يعتق المماليك جماعات ، ولم يحدث أن مملوكاً أعتق

(١) المقود بالقماش هنا رداء الخدمة وما يرتبط به من الأدوات الحربية كالسيوف والتركاش

وغيرها (انظر Mayer : Mamluk Costume p. 77)

(٢) القلقشندى : صبح الأعشى ج ٤ ص ١٦ .

(٣) الظاهري : زبدة كشف الممالك ص ١٢٥ .

المقريزي : السلوك لمعرفة دول الملوك ج ٢ ص ٥ .

(٤) ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة ج ٨ ، ص ٥١٩ .

(٥) العريني : نظام الفروسية ص ٩٧ - ٩٨ .

بمفرده ما عدا جقمق الذى تول السلطنة فيما بعد ، وذلك لظروف استثنائية ، إذ أن أخاه جاركس القاسمى المصارع من أعيان خاصكية السلطان برقوق سعى عند السلطان ، فاشتراه من أحد الأمراء وجعله من المالك الكتابية بطبقة الزمام ، ولم يستمر جقمق فى هذه الطبقة مدة طويلة ، بل أعتقه برقوق بمفرده بفضل ما لأخيه من مكانة عنده ، فصار من المالك السلطانية ، وبذا نالته السعادة وارتقى فى الوظائف فى سرعة (١) .

وحرص السلاطين على ألا يعتقوا ممالكهم قبل سن البلوغ ، فيظل المملوك الذى يدخل الطباقي فى سن مبكرة عدة سنوات حتى يعتق . ويعلق المملوك أهمية كبرى على عتقه وفقاً لقواعد الشريعة : فاذا تبين أن مملوكاً من المالك لم يجر عتقه على هذا النحو ، فيعتبر باقياً فى رق من اشتراه وملكه أو فى رق ورثته ولو بلغ فى هذه الحالة رتبة أمير مائة . ومن هذا القبيل ايتمش الاسندمرى الذى بلغ رتبة أمير مائة زمن السلطان برقوق ، ولما تبين أنه ما زال فى رق ورثة الأمير جرجى نائب حلب ، اشتراه برقوق من جديد وأعتقه وجعله أتابك العساكر (٢) .

الواضح الآن أن طبقة ممتازة نشأت بمصر من طوائف المالك ، وتعين على الفرد منهم أن يكون فى الأصل رقيقاً ، وأن تتحقق فيه شروط خاصة ، منها أنه لا يكون قبل جلبه إلى مصر مسلماً أو من أصل إسلامى ، إذ أن الرق لا يجرى على المسلم ، كما ينبغى أن يكون المملوك مولوداً خارج الدولة المملوكية ببلاد القفجاق تفضيلاً فى العصر المملوكى الأول أو ببلاد القوقاز والحر كس فى العصر المملوكى الثانى ، وأن يكون جلبه فى سن مبكرة ، وعلى الرغم من أن هذه الشروط لم يعتد بها فى كثير من الحالات ، فإنها ظلت موضع تقدير بدليل أن أبناء المالك الذين ولدوا فى مصر وغيرها من بلاد الدولة المملوكية لم يعتبروا من الطبقة الممتازة ، ويدل على أحوال الوافدية والمستأمنين فى العصر المملوكى الأول وأحوال الجماعات المهجرات التى جاءت إلى مصر فى العصر المملوكى الثانى .

(١) ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة ج ٧ ص ٣٤ - ٣٥ .

(٢) العرينى : نظام الفروسية ص ٩٩ .

ومن المعروف أن هؤلاء وأولئك صاروا في أجناد الحلقة أقل شأناً من المالك السلطانية الذين اتخذوا وسائل كثيرة للمحافظة على طبقتهم وامتيازاتها .

على أن الرق فحسب لم يكن كفيلاً بنجاح المملوك ، ممثلاً إذا اشترى أحد العوام مملوكاً من المالك ، فلا يواتيه حظ المملوك الذى يشتره السلطان أو الأمير ، والمعروف كذلك أن مملوك الأمير يقل فى الرتبة والمكانة عن مملوك السلطان ، وأن من العقوبات الصارمة التى يفرضها السلطان على أحد المالك السلطانية أن ينقله إلى خدمة الأمراء ، واتبع سلاطين المالك هذه الحطة معظم الأحيان لإبعاد ممالك السلاطين السابقين لهم ، فوزعوا غير المرغوب فيهم على الأمراء حتى يخلو الجو للسلطان وممالكه السلطانية (١) .

والمالك السلطانية الذين تلقوا تعليمهم وتدريبهم بالطباق إنما يتخرجون جنوداً فحسب ، فالعتاقة التى يحصلون عليها عند الانتهاء من هذا التدريب ليست إلا شهادة تمنح للمملوك وتشير إلى أنه أصبح حراً ، وأنه أتم تعليمه . ويتضح من تراجم الأمراء والسلاطين التى وردت فى المصادر المملوكية أنهم تساوا جميعاً فى المرحلة الأولى من حياتهم ، إذ جلبهم التجار أرقاء ودخلوا فى ملكية أحد السلاطين ، ثم نزلوا بالطباق حيث تلقوا تعليمهم الحربى ، ثم نالوا العتاقة وحصلوا على الجليل والقماش فبلغوا بذلك مرتبة الخندية .

ويختار السلطان من هؤلاء المالك بعد تخريجهم من الطباق عدداً يلحقهم بخدمته ويختص بهم لصفات فيهم ، ويطلق على هؤلاء الخاصكية فيتدرجون قبل تأميرهم فى وظائف الحمدارية والسلحدارية والجمعقدارية ، ويسرون فى سلم الترقى أسرع من سائر المالك السلطانية (٢) .

وظلت قواعد تربية المالك التى وضعها سلاطين الدولة المملوكية الأولى مرعية سائدة حتى أوائل العصر المملوكى الثانى ، غير أنه أصابها من التغيير والتبديل ما جعل المؤرخين يطلقون على أولئك السلاطين الأوائل ملوك السلف ،

(١) العيى : عقد الجمان ج ٦٦ ص ٣٤٨ ، ٣٥٢ .

ابن تغرى بدوى : النجوم الزاهرة (ق) ج ٨ ص ٤٩ ، ٢٧٧ .

(٢) العريى : نظام الفروسية ص ١٠٧ .

وإذا أطروا عملاً قام به سلطان من سلاطين العصر المملوكى الثانى فان إطرأهم يكون بسبب مطابقة هذا العمل للقواعد القديمة (١) .

وجرى التقليد منذ قيام الدولة المملوكية الأولى على أنه إذا تأمر أحد من المماليك ، نزل من قلعة الجبل وعليه التشریف والشربوش وأوقدت له شوارع القاهرة ، فيسير إلى المدرسية الصالحية بين القصرين ويحلف عند قبر الصالح أيوب بالقبة بجوار هذه المدرسة . ويحضر تحليفه حاجب الحجاب وخصاصكية السلطان ، ثم يمد السباط السلطاني لمن حضر وشارك الاحتفال بتنصيب الأمير ، ثم يخرج الأمير في موكب من القبة الصالحية إلى القلعة (٢) . وأدخل سلاطين بيت قلاون تقاليد وقواعد جديدة ، منها اتخاذ المدرسة المنصورية مكاناً يجرى فيه الاحتفال بتنصيب الأمير . ومنها ركوب الأمير فرسه تحت السنجق يحف به الأمراء ، وطلوع الأمير إلى حضرة السلطان بالقلعة حيث يبوس الأرض ثم يقبل يد السلطان (٣) .

وحرص كل سلطان أن يجعل الأمراء من مشروعاته ليضمن ولاءهم له والمحافظة على ملكه ووضع هذه السياسة الصالح أيوب ، وجرى سلاطين المماليك على هذه السنة (٤) .

على أن ترقية المماليك السلطانية في وظائف الدولة وما يتبعها من الانتقال من رتبة إلى أخرى خضعت لاعتبارات مختلفة منها علاقة الملوك بالسلطان ، فالخاصكية أسرع المماليك في الترقية . أما الاعتبار الثانى فهو العصبية والجنسية . وتجلب أهمية هذه القاعدة منذ أخذ نفوذ البرجية أو الجراكسة يشتد بعد عودة السلطان الناصر محمد بن قلاون إلى السلطنة للمرة الثانية بفضل ازدياد نفوذ الأمير بيبرس الحاشنكير ، فغدا نواب البلاد الشامية من البرجية وخجداشية بيبرس فقوى أمره بهم (٥) .

(١) ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة ج ٦ ص ٣١٦ ، ٥٠٩ .

منتخبات من حوادث الدهور ص ٣٧٨ .

(٢) القلقشندي : صبح الأعشى ج ١٣ ص ٢١٩ .

المقريزى : الخطط ج ٢ ص ٢٨٥ - ٢٨٦ .

(٣) العيني : عقد الجمان ج ٦٢ ص ٢٤٨ .

المقريزى : السلوك لمعرفة دول الملوك ج ٢ ص ٢١٧ ، ٢٣٠ ، ٢٣٤ .

(٤) المقريزى : السلوك لمعرفة دول الملوك ج ١ ص ٣٣٩ - ٣٤٠ ، ٦٧١ - ٦٧٢ .

(٥) ابن تغرى بردى : المنهل الصافي ج ١ ص ١٣٦٨ .

وازداد شأن صلة القرابة في دولة الجراكسة فأصبح القفز إلى الرتب العليا دفعة واحدة أمراً مألوفاً ، وساد في هذا العصر المملوكي الثاني محاباة السلاطين وكبار الدولة لأقاربهم والإنعام عليهم بالرتب والاقطاعات^(١) في غير نظام .

ومن الاعتبارات التي لها أهميتها في الترقية أيضاً ما يرتبط به المالك معاً من صلوات الزمالة في الرق والعتق والعمل والخدمة ، ويطلق على هؤلاء الرفقاء خجداشية أو خشداشية^(٢) . وأثرت هذه الرابطة في اختيار السلاطين ، فإذا تولى السلطان الحكم عمل للخشداشية كل حساب . ومن الأمثلة على ذلك ما اشتهر به السلطان أيبك من المداراة لخشداشيته والصبر الطويل على مناوئتهم له وسوء أخلاقهم^(٣) . وحرص السلطان بيبرس الجاشنكير على تعيين خشداشيته نواباً في الممالك الشامية^(٤) . ولم يصل كمشبغا بن عبد الله الحموي اليلبغاوي إلى وظيفة أتابك العساكر بالديار المصرية زمن السلطان برقوق إلا لكونه خشداشه^(٥) . واشتهر السلطان خشقدم بالعطف على خشداشيته فرقاهاهم إلى الوظائف العالية^(٦) .

ومهما يكن لهذه الاعتبارات المختلفة من أهمية في ترقية المملوك في وظائف الدولة . فان سلاطين المالك لم يغفلوا ما للفروسية وإجادة الفنون الحربية من التقدير والاعتبار عند ترقية المملوك ولا سيما في العصر المملوكي الأول . ففي أثناء مهاجمة السلطان بيبرس انطاكية سنة ٦٦٦ حدث أن تمكن جندي من أسر كندا صطبل عم هيثوم ملك أرمينيا الصغرى وأحضره إلى السلطان فأعطاه بيبرس عشرة طواشية وأمره بحمل رفك كندا صطبل على سنجقه المملوكي الإسلامي^(٧) . وتأمر محمد بن أمير سلاح بكتاش الفخرى زمن السلطان قلاون لأنه اشترك رغم صغر سنه في محاربة الأمير سنقر الأشقر الذي خرج على طاعة قلاون

(١) ابن تغرى بردى : المنهل الصافي ج ١ ص ٢٤٣ ب ، ١٤٥٦ ،

ج ٢ ص ٦٢ ، ج ٣ ص ٢٥ ب .

(٢) العريبي : نظام الفروسية ص ١١٤ .

(٣) ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة (ق) ج ٧ ص ٣٢ .

(٤) ابن تغرى بردى : المنهل الصافي ج ١ ص ١٣٦٨ .

(٥) ابن تغرى بردى : المنهل الصافي ج ٢ ص ١٥٧ .

(٦) السخاوي : الضوء اللامع ج ٦ ص ٢٠١ ، ج ١٠ ص ١٦٤ .

(٧) العيني : عقد الجمان ج ٥٥ ص ٥٣٩ .

وأعلن نفسه سلطاناً في دمشق (١) . وأبى قلاوون أن يستجيب لرجاء الأمير طرناوى نائب السلطنة بالديار المصرية في الانعام بإقطاعية في الحلقة على ولده وولد الأمير كيتغا الذى تزوج بابنته لأنه لم يرهما في مصاف القتال يضربان بالسيف يوماً من الأيام (٢) .

ولم تعين المصادر المملوكية عدد السنوات التى يقضيها المملوك لارتقائه من رتبة إلى أخرى ، بل اكتفت بالإشارة إلى ضرورة مضي مدة لطبقة على قول ابن تغرى بردى . فمثلاً بعد أن أم المملوك شيخ تعليمه بالطباق ، وأخرج له السلطان برقوق خيلاً وقماشاً وجعله في حملة الحمدارية ، نقله برقوق بعد مدة لطبقة إلى الخاصكية ، ثم بعد مدة أخرى أصبح شيخ ساقياً ، وصارت له مكانة عند السلطان ، ثم صار أمير عشرة سنة ٧٩٤ ، ثم أمير عشرين ثم أربعين وبذا أصبح أمير طبلخاناه . ولما تعين الأمير ايتمش للوصاية على المملكة بعد وفاة برقوق أعطى للأمير شيخ سنة ٨٠١ تقديماً ألف وهى أعلى المراتب ، أى أن شيخاً استغرق في سلم المراتب المملوكية بعد تأميره نحو ثمانى سنوات ، ولم يزل يناضل حتى بلغ كرسى السلطنة سنة ٨١٥ (٣) .

وليس الاقطاع هو كل ما يحصل عليه المملوك بعد عتقه من أرزاق ، بل يتقاضى كذلك أنواعاً مختلفة من النفقات والرواتب في أوقات معينة ، فمنها الحامكية وهى الراتب الشهرى الذى يصرف للمالك السلطانية (٤) ، والنفقة وتمنح في أوقات غير منتظمة وعلى الأخص قبيل تسيير الحملات الحربية ، فتعطى للجندى أو الأمير لينفق منها على تجهيز نفسه ومماليكه وخيوله (٥) . ومن النفقة كذلك ما يوزعه السلطان كذلك عند توليته السلطنة على الأمراء والأجناد ، ففي سنة ٨٠١ حصل المالك السلطانية على نفقة سلطنة الناصر فرج (٦) .

(١) العيني : عقد الجمان ج ٦٣ ص ٤٨٠ .

(٢) المقرئى : الخطط ج ٣ ص ٣٥١ .

(٣) ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة ج ٦ ص ٣٢٢ - ٣٢٣ المنهل الصافي ج ٢ ص ١٨٩ ب

(٤) ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة ج ٦ ص ٣٨٧ .

(٥) المقرئى : السلوك لمعرفة دول الملوك ج ١ ص ٦٨٢ - ٦٨٣ ، ٨٨٥ .

(٦) ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة ج ٦ ص ٦ - ٧ .

وأعطى السلاطين النفقة في غير هذا وذلك من الأوقات استجلاً للقلوب، فجعل السلطان الناصر محمد بن قلاوون لكل مملوك خمسمائة درهم وقرقل وخوذة، وذلك سنة ٧٤٠ حين جمع الأمراء وحلف المحردين والمقيمين منهم لولده الأمير أبي بكر بعده (١).

وحصل الأمراء والمالكيك على الكسوة بالإضافة إلى الحوامك والنفقات، في الغالب، كان توزيع الكسوة عليهم سنوياً، غير أنه ربما أخذوها على دفعتين، في السنة، للصيف والشتاء (٢). وفي العصر المملوكي الثاني جرى التقليد على أن يصرف السلطان ثمن الكسوة للمالكيك (٣). ومن بين الكلف السلطانية توزيع الأضاحي على المالكيك في كل سنة، فضلاً عما تقدمه الحواصل السلطانية للأمراء في كل يوم من رواتب اللحم والتوابل والخبز والزيت والعليق (٤). ويفرق السلطان الخيل على مماليكه، وكل من مات له فرس دفع إليه عوضه، وجعل السلطان للأمراء والمالكيك في كل سنة إطلاقات بالأعمال الخيرية لربيع خيولهم من القرط (البرسيم)، وما يدفع إليهم من القرط يكون بدلا من عليق الشعير المرتب لهم في غير زمن الربيع (٥).

وأشارت كتب الفروسية إلى أهمية قيام الفارس بإعداد فرسه باتخاذ ما يناسبه من أدوات الركوب كاللجام والسرج والركابين، وتفقد سير الركاب

(١) المقریزی: السلوك لمعرفة دول الملوك ج ٢ ص ٤٩٩.

(٢) المقریزی: الخطط ج ٣ ص ٣٥١.

القلقشندي: صبح الأعشى ج ٤ ص ٥٥.

(٣) ابن تفری بردی: منتخبات من حوادث الدهور ص ١١٣.

ابن إياس: بدائع الزهور ج ٢ ص ٥٧.

(٤) المقریزی: الخطط ج ٣ ص ٣٥١.

القلقشندي: صبح الأعشى ج ٤ ص ٥١، ٥٦.

(٥) القلقشندي: صبح الأعشى ج ٤ ص ٥٤.

حرص سلاطين المالكيك - ولاسيما في العصر المملوكي الأول - على اقتناء الخيول الجيدة من بلاد البحرين وارمينيا الصغرى وشمال الشام والجزيرة وبلاد المغرب. انظر المقریزی: السلوك لمعرفة دول الملوك ج ٢ ص ٥٢٦ - ٥٢٧.

القلقشندي: صبح الأعشى ج ٧ ص ٣٧٠.

العيني: عقد الجمان ج ٦١ ص ٣٥٨.

والأبازيم ، واستخدام ما يصلح من اللبود للفرس عند القتال ، ومراعاة كفايتها لتغطية خاصرتي الدابة ، فضلا عن العناية بالبدايين والمرشحة لما لها من الأهمية في سرعة الفرس وخفته (١) ، وتلبس الخيول عند القتال البركستوانات والوجوه بالفولاذ (٢) .

أما عدة الفارس الحربية فتشمل أدوات الدفاع وأدوات القتال ، فمن أدوات الدفاع الدرع وهو جُبّة من الزرد المنسوج يلبسها المقاتل لوقاية السيوف والسهم (٣) ويلبس عادة فوق قميص . وقد يرتدى الفارس درعين ، وبعض الدروع مفرط في الطول حتى يبلغ الأرض ويغطي قوائم الفرس ويطلق عليه زردية سابلة أو مسبلة (٤) ويختلف الجوشن عن الدروع بأن الدرع مكون من حلقات متصلة في شكل سلاسل ، بينما تكون الجوشن من حلقات يفصلها عن بعضها قطع صغيرة من الصفائح ، وساد استعمال الجوشن في العصر المملوكي الأول ، ولم يستعملها إلا كبار الأمراء في العصر المملوكي الثاني لارتفاع أثمانها (٥) ومن تعاليم الفروسية أن يدمن صاحب الجوشن لباسه بنفسه ، حتى يسهل عليه لبسه ، وأن يعلم تواليفه وخياطته ، وأن يكون معه سيور وخبوط وحلق وأبازيم وشفاه ، وأن يتعاهده كل يوم عند نزوله وإقامته ، وأثناء الشتاء والمطر والبلل ، يميّطه عن علاقته ورباطه لئلا يفسد ، وأن يجعل الفارس تحت الجوشن حشوة حتى يدفع عنه الحر والبرد وضرب العمود (٦) . وفي العصر المملوكي ساد عمل القرقلات من الزنجاج المتخذة من الحديد والتي يتصل بعضها ببعض (٧) ،

(١) كتاب علم الفروسية ١٧٨ ، ب (مخطوط بدار الكتب المصرية رقم ٥ م) .

القلقشندي : صبح الأعشى ج ٢ ص ١٢٨ - ١٢٩

(٢) القلقشندي : صبح الأعشى ج ٤ ص ٥٦ .

(٣) القلقشندي : صبح الأعشى ج ٢ ص ١٣٦ .

(٤) Mayer : Saracenic Arms and Armor, p. 2 (Ars Islamica Vol. X. 1943).

المقريزي : السلوك لمعرفة دول الملوك ج ١ ص ٦٠٨ .

(٥) Mayer : Op. Cit. p. 3

(٦) كتاب الجهاد والفروسية ص ٤٥ ، ب ، ٤٦ (مخطوطة رقم ٣ م فنون حريرية بدار الكتب المصرية) .

(٧) القلقشندي : صبح الأعشى ج ٢ ص ١٣٦ .

واشتهرت القرقلات المحفوظة بالزردخانات السلطانية بأنها مغشاة بالديباج الأحمر والأصفر ، ولم يخرج القرقل عن أنه زردية بغير أكمام مصنوعة من صفائح حديدية ومبطنة بالحرير (١) .

أما غطاء الرأس فقد ميز القلقشندى بين نوعين : البيضة وهي آلة من حديد أو من زرد توضع على الرأس لوقايتها من الضرب . وليس بها ما يرسل على القفا والأذنا ، والمفغر وهو كالبيضة ، غير أن فيه أطرافاً مسدولة على قفا اللابس (الدارع) وأذنيه وربما جعل منها وقاية لأنفه أيضاً (٢) . والخوذة تطلق على كل ما يقي الرأس دون أن تدل على شكل من الأشكال .

والترس هو من الأدوات التي يتقى بها المحارب الضرب والرمي عن الوجه (٣) ويصنع من الخشب أو الحديد أو الجلد . وللترس خمائل وسموطان ، يدخل الفارس رأسه في وسط الحميلة ويجعل يده في سموط ، ويضبط بالإبهام السموط الدائر (٤) . والتروس على أشكال منها المسطح والمستدير ومنها المستطيل في أعلاه المحصر الوسط مما يلي أعلاه (٥) . واستخدم الفارس الساعدين والساق موزا لحماية يديه وساقيه (٦) . أما الخف فبطن بالزرد كذلك (٧) . وأشهر أسلحة الهجوم السيف والرمح والقوس ، فيشد الفارس السيف والتركاش في وسطه ، ويأخذ الطارقة بشماله والرمح بيمينه ، ويجعل الخنجر في خفه (٨) . وينصح معلمو الفروسية بأن يعمل الفارس على أن يوافر له من الأسلحة ما يضرب ويطعن به ويرمي عنه (٩) ، فيفيد من العمود في ضرب أنف الرجل ومقدم

-
- (١) القلقشندى : صبح الأعشى ج ٤ ص ١٢ . Mayer : Op. Cit. p. 4.
 - (٢) القلقشندى : صبح الأعشى ج ٢ ص ١٣٥ .
 - (٣) القلقشندى : صبح الأعشى ج ٢ ص ١٣٦ .
 - (٤) كتاب الجهاد والفروسية ص ١٣٤ (مخطوطة ٣ م فنون حربية بدار الكتب المصرية) .
 - (٥) كتاب الجهاد والفروسية ص ٣٩ ب .
 - (٦) كتاب الجهاد والفروسية ص ١٤٥ .
 - (٧) المقامة الصلاحية ص ١١ .
 - (٨) كتاب الجهاد والفروسية ص ٤٧ ب .
 - كتاب علم الفروسية ص ١١ ب .
 - (٩) كتاب الجهاد والفروسية ص ١٤٦ .

رأسه وعضده وخطم دابته (١) ، أما الوهق فهو المقلاع ويعلقه الفارس في
مقدم قربوس سرجه من جهة اليمن (٢) ، والطبر هو البلطة وموضعه حلقة
تأخذها له الفارس في سرج فرسه (٣) .

ويقوم كاتب الجيش بإضافة كل جماعة من الممالك السلطانية إلى مقدم
من أعيانهم ، ويميز أرباب الوظائف منهم من السلاحدارية والحربدارية
والحمددارية والحمددارية ، والزرذكشية والبندقدارية ، ومن السقاة والحمددارية
والخزندارية والحراس والبشمقدارية وغيرهم ، ويضيف كل جماعة من كل طائفة
منهم إلى شخص معين من جملتهم ، وأما المالك الكتابية فينتسب كل جماعة منهم
إلى طبقة مقدمها من الطواشية ، وينسب المالك البرجية إلى مساكنهم ومقدمهم ،
والأوشاقية إلى المقدم عليهم من الطواشية . ويرجع سائر الممالك السلطانية إلى
مقدمهم الكبير ، ولا يكون في الغالب إلا من الطواشية الأمراء (٤) ، وهو
الذي يعين مواقفهم في أوقات البيكار والحرب وفي الأسفار حول الدهليز
السلطاني (٥) .

على أن بيبرس المنصوري الداوادر ، وهو ممن اشترك في مقاتلة التتار
في وقعة حمص سنة ٦٨٠ ، أورد وصفاً لما جرى من تعبئة الجيش المملوكي
بوقتئذ ، فأشار إلى أن السلطان قلاوون حين علم بقدم التتار إلى حارم وامتلاكهم
البلاد ، أمر الناس أن يلبسوا في كل يوم عدد الحرب ويركبوا ويصطفوا ليتمرنوا
على الحرب ، ثم أصلح ما جرى من نزاع بينه وبين سنقر الأشقر صاحب
صهيون على أن يشترك بمن معه من الجنود والأمراء في القتال ، وضرب السلطان
دهليز الحرب الأحمر ، وحين جاءت الأخبار بحركات العدو وعددهم وعدتهم
رتب السلطان الجيش ميمنة وميسرة وقابلاً وجناحين ، وبات المسلمون على

(١) كتاب الجهاد والفروسية ص ١٤١ .

(٢) كتاب الجهاد والفروسية ص ٤٨ ب .

(٣) كتاب الجهاد والفروسية ص ٤٧ ب .

Mayer : Mamluk Costume p. 47.

(٤) التويرى : نهاية الأدب ج ٨ ص ٢٠٤ - ٢٠٥ .

(٥) القلقشندی : صبح الأعشى ج ١١ ص ١٧٣ .

ظهروا الخيل لابسين لامات الحروب مدرعين هم ونحوهم، وكتب صاحب حماه إلى السلطان بأن عدة جيش التتار ثمانون ألف مقاتل، تحت القلب منها أربعة وأربعون ألفاً وهم طالبون القلب، وميمنتهم قوية جداً، ونصح بتقوية ميسرة المسلمين والاحتراز على السناجق (١).

وجرت وقعة خص يوم الخميس ١٤ رجب سنة ٦٨٠، وتكونت ميمنة جيش السلطان قلاون من عسكر حماه، وبعض أمراء الألوف ومضافيهم من أمراء الطبليخانات وأصحاب العشرات ومقدمي الحلقة وأجنادها وغيرهم من العسكر، ونائب الشام وأمراء الشام والعسكر الشامي، وفي رأس الميمنة أمراء عربان البلاد الشامية ومن انضم إليهم، أما الميسرة فشملت بعض أمراء الألوف ومضافيهم كذلك، وفي رأس الميسرة التركمان بمجموعهم وعسكر حصت الأكراد (٢). وفي الجاليش وهو مقدم القلب نائب السلطنة ومضافوه من الأمراء والمغاردة ومماليكه وأجناده وبعض المقدمين ومن معهم من المماليك السلطانية. ووقف السلطان تحت السناجق وحوله مماليكه والزمامه والسلحدارية والسنجقدارية والطبردارية (٣). وبدأ القتال بتركيز العدو هجومه على ميمنة جيش المنصور، فثبتت العساكر للقتال والتفوا على التتار فمالوا على ناحية جاليش (مقدم) القلب، غير أنهم منوا بالكسرة والهزيمة وانهمز ملكهم منكوتر وولى هارباً (٤). فتكون قلب الجيش من المماليك السلطانية وهم الذين تعرضوا للصدمة الأولى من العدو المهاجم وهم الذين قرروا مصير المعركة.

على أن نظام الفروسية المملوكية حمل في طياته بذور الانحلال والفناء حتى إذا تجمعت هذه البذور أواخر الحكم المملوكي لأسباب سياسية واقتصادية وحريرية فقد هذا النظام روحه وجوهره، وظل محتفظاً بالمظهر الخارجي حتى بداية القرن التاسع عشر الميلادي.

(١) بيارس الداوادر : زبدة الفكرة ص ١٧٢ - ١٧٣ .

(٢) بيارس الداوادر : زبدة الفكرة ص ١٧٤ - ١٧٥ .

(٣) بيارس الداوادر : زبدة الفكرة ص ١٧٦ .

(٤) بيارس الداوادر : زبدة الفكرة ص ١٧٦ .

فالواضح أن القواعد التي قامت عليها القروسية المملوكية تركز إلى ما حصل عليه المماليك من تدريب حربي وديني أثر في خلقهم وحدد سلوكهم ومستقبلهم ، فضلاً عما التزمه هذا النظام من ولاء المملوك وإخلاصه لسيدته ووفائه في الرق والعتق ، وتقدير كفاءة المملوك عند ترقيته في الرتب والوظائف ، وطول المدة في الطباق حتى تتأصل في نفس المملوك الصفات التي تخلق منه فارساً ملمماً بأصول القروسية .

غير أن هذه القواعد أصابها كثير من الخلل والاضطراب ، فلم يعد السلاطين الجراكسة يحفلون بأن تطول مدة بقاء المملوك في الطباق ، فيخرج مفتقراً إلى التدريب الجيد والخلق القويم والولاء الصحيح . يضاف إلى ذلك كثرة جلب البالغين من المماليك الذين جاءوا بعد أن تكونت أخلاقهم وامتهنوا حرفاً في بلادهم ، وكثير من هؤلاء المحلوبين يمتون بصلة القرابة والنسب للسلاطين والأمراء في مصر ، فضلاً عن هجرة عدد كبير بسبب ما حاق ببلادهم من خراب نتيجة إغارات تيمورلنك ، فنقلوا معهم مساوئهم ورذائلهم ، فغدوا مصدراً للشر والفتنة في البلاد ، ونسب إليهم المقريزي ما أصاب البلاد من خراب (١) .

ومن العوامل التي أضعفت هذا النظام ارتباطه بنظام الحكم ، إذ تأثر ولاء المملوك بما أصاب نظام الحكم من هزات وضربات . فالمحاولات التي قام بها السلاطين في العصر المملوكي الأول لجعل الحكم وراثياً لم تحظ بالموافقة الإجماعية من الأمراء ، ومن الأمثلة على ذلك ما بدا من مقاومة الأمراء لحكم ابن ابيك ولحكم السعيد بن بيبرس واضطرار الناصر محمد بن قلاوون إلى التخلي عن السلطنة لبعض الأمراء الأقوياء (٢) . وفي عصر الجراكسة أحمل مبدأ الوراثة نهائياً مع المحافظة على مهزلة تولية ابن السلطان المتوفى مدة قصيرة جداً ، فأصبح من العسير على المماليك أن ينقلوا ولاءهم من سلطان إلى آخر . ففي عصر الجراكسة أصبح المماليك المشترون هم الدعامة الوحيدة التي يرتكز عليها السلطان في مقاومة

(١) المقريزي : الخطط ج ٢ ص ٢١٣ - ٢١٤ .

(٢) العريني : نظام القروسية ص ٢٣٦ .

الفئات الأخرى من المماليك السلطانية ، وعلى الأخص ممالك السلاطين السابقين المعروفين بالقرانيص . فالسلطان ومشترواته هم الذين يتمتعون بالسلطان والنفوذ والثروة ، إذ جرى السلطان على أن يفسح لهؤلاء المشتروات الطريق ليظفروا بالقوة والسلطة ، فضلاً عن الإكثار من عددهم ، ولعلّ هذا هو السر في أنه كلما ارتقى سلطان جديد دست السلطنة أجرى عقب توليته حركات تطهيرية عنيفة ترمى إلى التخلص من ممالك السلطان السالف له في الحكم ، فأقصاهم عن وظائفهم وألقى بهم في السجن أو نقلهم إلى جهات نائية أو إلى خدمة الأمراء. ونجم عن ذلك أن تكون من المماليك السلطانية طوائف لم تكن متجانسة ولا متماسكة لأنها من عناصر مختلفة ومتعادية تدين بالولاء إلى سلاطين مختلفين ، ولم تجتمع هذه الطوائف إلا على كراهية المشتروات . وتوافرت أسباب هذه الكراهية زمن الحراكسة لقصر عهد سلاطينهم ، فتكونت منهم عدة تشكيلات انتمى أفرادها إلى السلاطين الذين اشتروهم وجلبوهم مثل الأينالية والحكمية (١) والحشقدمية ، وانصرف الاجلاب إلى إهمال الواجبات الحربية بعد أن ضمنوا لأنفسهم مصادر الثروة والسلطة والنفوذ مما جعل السلاطين يعتمدون في حملاتهم الحربية على القرانصة برغم عداوتهم للمشتروات الجلبان وحنقهم عليهم لما استأثروا به من الاقطاعات والرتب والوظائف . وتجلّى ذلك منذ منتصف القرن التاسع الهجري زمن السلطان اينال ، إذ طفحت المصادر المملوكية بأخبار ثورات الجلبان ونزاعهم مع العناصر المملوكية الأخرى في الجيش ، فضلاً عن استبدادهم بأمور الدولة وانقياد السلطان لهم (٢) .

ويشير ابن تغرى بردى إلى ما وصلت إليه حال المماليك من الانهيار في القرن التاسع الهجري بأنهم مع قلتهم وضعف بنيتهم وعدم شجاعتهم ، غدا شرمهم في الرعية معسروفاً ، ونفعهم عن الناس مكفوفاً ، على الرغم من أنه لم يقع في هذا القرن لقاء مع خارجي غير وقعة تيمور وغزو جزيرة قبرص ،

(١) العرينى : نظام الفروسية ٢٣٧ .

(٢) ابن تغرى بردى : منتخبات من حوادث الدهور ص ٤ ، ١٦٧ ، ١٦٨ ، ١٧٤ ،

١٧٥ ، ١٩٢ ، ٢١١ ، ٢٢٣ ، ٢٣٩ ، ٣١٨ ، ٣٢٠ ، ٣٣٦ .

النجوم الزاهرة ج ٦ ص ٦٤١ ، ج ٧ ص ٤٥٢ ، ٤٦٢ .

ويذكر ابن تغرى بردى عن ضعفهم وعجرفتهم وعدم خبرتهم الحربية بأن الواحد منهم أنفه في السماء ، ولا يهتدى لمسك بلحام الفرس ، ليس لهم صناعة إلا نهب البضاعة ، يتعدون على الضعيف ويشرهبون حتى في الرغيف ، جهادهم الإخراق بالرئيس ولا مروءة لهم (١) .

ووضحت أحوال الانحلال المملوكى تماماً حين أخذ السلطان الغورى بعد العدة من جانبه لمواجهة الجيش العثمانى سنة ١٥١٦ ، فحاول تسوية مشاكله الداخلية التى نشأت عن ثورة مماليكه السلطانية من الجلبان الأحداث والقرانينص القدماء بسبب تأخر جوامكهم . وهال الغورى أن ينغمس مماليكه فى الفتنة مع ما بالدولة من حاجة إلى الانصراف لشئون الحرب المنتظرة ، ومع ما بها من فقر وارتباك مالى بسبب استحواذ البرتغاليين على معظم تجارة الهند وأرباحها من أواخر أيام قايتباى ، ولم يبق لدى الغورى إلا أن يرضى مماليكه بفرق فيهم الأموال لشراء ما يلزم من آلة الحرب (٢) . غير أنه ما لبث أن وقع الشقاق والنفار بين الفئات المختلفة من المماليك فى وقعة مرج دابق بعد أن أشاع خايربك بين المماليك القرانصة أن السلطان أمر مماليكه الأجلاب ألا يتقدموا للقتال حتى يصدر أمره إليهم ، وفسر القرانينص ذلك بأنه خطة دنيئة من السلطان الغورى ليجزيهم وعدهم بما ارتكبوا فى حقه فى سابق السنين ، فكان ذلك سبباً كافياً لتثبيط الهمم وحلول الهزيمة بعد فرار جنود الميمنة والقلب (٣) .

(١) ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة (ق) ج ٧ ص ٣٢٨ - ٣٢٩ .

(٢) زيادة : نهاية السلاطين المماليك فى مصر ص ٢١٣ .

(٣) زيادة : نهاية السلاطين المماليك فى مصر ص ٢١٩ .

المصادر والمراجع

- ابن الفرات : محمد بن عبد الرحيم
تاريخ الدول والملوك - الأجزاء ٧ ، ٨ ، ٩ (١٩٣٦ - ١٩٤٢) -
نشرة الدكتور قسطنطين زريق والدكتورة نجلا عز الدين (منشورات
الجامعة الأمريكية ببيروت) .
- ابن إياس : محمد بن أحمد المصري الحنفى
بدائع الزهور فى وقائع الدهور - بولاق ١٣١١ - الجزء الرابع
والخامس - مطبعة الدولة باستانبول ١٩٣١ ، ١٩٣٢ .
- ابن بكتوت الرماح : محمد
كتاب الفروسية وعلاج الخيل (ضمن مجموعة رسائل برقم ٤ م فنون
حرية بدار الكتب المصرية) .
- ابن تغرى بردى : جمال الدين أبو المحاسن .
(١) النجوم الزاهرة فى ملوك مصر والقاهرة (الأجزاء ٦ ، ٧ ، ٨ ، ٩
مطبعة دار الكتب المصرية ١٩٣٦ ، ١٩٣٨ ، ١٩٣٦ : ١٩٤٦ ،
الأجزاء ٥ ، ٦ ، ٧ نشر Popper بكاليفورنيا ١٩٣٢-١٩٣٥ ،
١٩١٥ - ١٩٢٣ ، ١٩٣٦ - ١٩٣٩) .
- (٢) المنهل الصافى والمستوفى بعد الوافى - مخطوطة رقم ١١١٣ تاريخ ٣
مجلدات - بدار الكتب المصرية .
- (٣) منتخبات من حوادث الدهور فى مدى الأيام والشهور - نشر Popper
بكاليفورنيا ١٩٣٠ ، ١٩٣١ .
- ابن حجر العسقلانى : أحمد بن على
الدرر الكامنة فى أعيان المائة الثامنة ٤ أجزاء حيدر آباد - الهند
١٣٤٨ - ١٣٥٠ .

ابن يعقوب الخليلي : أبو حزام

(١) كتاب الفروسية والبيطرة في علامات الخيل وعلاجها - مخطوطة رقم ١٦١٠ طب بدار الكتب المصرية .

(٢) كتاب علم الفروسية - مخطوطة رقم ٥ م فنون حربية - بدار الكتب المصرية .

(٣) كتاب الخيل والفروسية - مخطوطة رقم ١٣٣٤ طب بدار الكتب المصرية (١)

أبو شامة : عبد الرحمن بن اسماعيل القدسي

كتاب الروضتين في أخبار الدولتين . مطبعة وادي النيل - القاهرة
١٢٧٨ ، ١٢٨٨ هـ .

السخاوي : شمس الدين محمد

الضوء اللامع لأهل القرن التاسع - مكتبة القدسي - القاهرة ١٣٥٣ .

الظاهري : خليل بن شاهين

كتاب زبدة كشف الممالك وبيان الطرق والمسالك - نشر Ravaisse
باريس ١٨٩٤ .

العريبي : السيد الباز

نظام الفروسية في مصر زمن سلاطين المماليك (مخطوطة لم تطبع بعد) .

العيني : بدر الدين محمود

عقد الجمان في تاريخ أهل الزمان ٧٠ مجلداً صورة شمسية بدار الكتب
المصرية برقم ١٥٨٤ تاريخ .

القلقشندي : أبو العباس أحمد

صبح الأعشى في صناعة الإنشا ١٤ جزءاً مطبعة دار الكتب المصرية .

(١) لم يرد اسم المؤلف في المخطوطتين ٢ ، ٣ غير أنه تبين بعد مراجعة المخطوطات الثلاثة ومقارنتها أنها لمؤلف واحد وفي موضوع واحد برغم اختلاف العنوان .

المقرئزى : أحمء بن على

- (١) كتاب السلوك لمعرفة دول الملوك نشر الدكتور محمد مصطفى زبءاءة الجزء الأول ١٩٣٤ - ١٩٣٩ ، الجزء الثانى ١٩٤١ - ١٩٤٢ .
(منشورات لجنة التأليف والترجمة والنشر بالقاهرة) .
- (٢) كتاب الخطط والآثار فى مصر والقاهرة والنيل وما يتعلق بها من من الأخبار - مطبعة النيل ١٣٢٦ - طبعة بولاق ١٢٧٠ .

التورى : أحمء بن عبد الوهاب

- نهاية الأرب فى فنون الأءب - المطبوع منه ١٤ جزءاً - مطبعة دار الكتب المصرية بالقاهرة (١٩٢٣ - ١٩٤٣) .

بكتوت : بءر الءىن بن بكتوت الرماح الءازنءار الظاهرى المتوفى سنة ٧١١ هـ
كتاب علم الفروسية - مخطوطة رقم ٤ م فنون حريرة بءار الكتب المصرية
ببسر المنصورى الءاواءار :

زبءة الفكرة فى تاريخ الهجرة صورة شمسية رقم ٢٤٠٢٨ بمكتبة جامعة القاهرة .

زبءاءة : محمد مصطفى

نهاية السلاطين الممالىك فى مصر (المءلة التاريخية - المءلء الرابع - العءء الأول - مايو سنة ١٩٥١) .

طبىفا الأشرفى البكلمشى الئونانى المتوفى سنة ٧٧٠ هـ (١٣٦٨ م)

(١) كتاب الءهاد والفروسية وفنون الآءاب الحريرة (مخطوطة رقم ٣ م فنون حريرة بءار الكتب المصرية) .

(٢) بغة المرام وغبة الغرام فى الرمى بالنشاب (مخطوطة رقم ٩٣ فروسية بالتمورية - بءار الكتب المصرية) .

لاءىن : حسام الءىن

كتاب المباءىن (ضمن مجموعة رسائل فى الفروسية - مخطوطة رقم ٤ م فنون حريرة بءار الكتب المصرية) .

يلبغا الأشرقي :

كتاب كامل الصناعتين في الفروسية والشجاعة (في المجموعة رقم ٤ م
فنون حربية بدار الكتب المصرية) .

Ayalon, David : Studies on the Structure of the
Mamluk Army.

I-III (Reprinted from the BSOAS 1954, XVI) .

Mayer, L.A. : 1) Saracenic Arms and Armor (Ars
Islamica, Vol. X. 1943).

2) Mamluk Costume, Genève 1952 Vol. X. 1943.

الصير الباز العربي